فأصبح العامل والقياس والتعليل والخروج على المألوف فى بعض الاستعمالات من ميزات هذا النحو الذى نفخر به جميعاً، ولاريب أنّ وضع النحو العربى فى إطار جديد يتقابل فيه القديم العربى والحديث الغربىّ يُسعف فى تجديد إحساسنا بالنحو العربىّ فى مفهوماته ومنطلقاته وأبعاده بعد طولَ إلفٍ به فى لغته الخاصّة ومصطلحه الخاصّ ومنهجه الداخلى فالحقيقة أنه يجب ألا نرفض كل ما يقدم من مناهج الدرس الحديث فهى فى الحقيقة تبعث الحياة فى تراثنا القديم وتوقظ فينا الغيرة عليه والرغبة فيه وفى التمسك به بالرغم من أنها تبدو فى ظاهرها أى النظريات الحديثة وكأنها محاولة هدم للتراث فعلى سبيل المثال لم تتجدد ذكرى عبد القاهر الجرجانى إلا بظهور الأسلوبية أو علم الأسلوب وهى إحدى مشتقات نظرية النحو التحويلى كما لم تحمد أصول النحو العربى بقدر ما أحمدت فى ظل أفكار النظرية التحويلية ولم يعرف لعلماء العربية فضلهم فى التأديب والتدريس والتعليم ولطريقتهم فى عقد الحلقات العلمية فى المساجد كما عرف ذلك الفضل فى إطار معرفة فضل الطريقة المعيارية ضرورة تعليمية ولكن ما علاقة ذلك كله بالمنظومة النحوية، دفعنى إلى هذا الكلام الطويل وجرنى إليه أن المنظومة النحوية تعدّ أولاً حلقة من حلقات التأليف النحوى وأنها ثانياً كانت مدعاة ونموذجاً للاستشهاد والاستدلال على ما أخذ به الوصفيون النحو العربى من عيوب خصوصاً ألفية ابن مالك بشهرتها وذيوعها فى أوساط الدارسين ومعاهد العلم المختلفة مما دفع بعض الوصفيين كالدكتور تمام حسان إلى عدم الاعتقاد فى جدوى نظرية العامل والإعراب وأراد أن يستبدلهما بنظام القرائن بأنواعها وذلك فى كتابيه اللغة بين المعيارية والوصفية، واللغة العربية معناها ومبناها. وأن ما قدم من بدائل لبعض أفكار النحو العربى كانت مبنية على أن النحو هو الألفية وهذا ما سنعرض له عرضاً مفصلاً فيما يأتى.

ومن البديهى أن اللسان يخضع لتنظيم قائم بذاته وأنه على الألسنى أن